صفحة من حرب الجبابرة

جيوكنـــدا

للأســـتاذ محمد محمد مصطفى

السماء يومئذ تمطر شهباً تزلزل الأرض وتفتت الصلب ، والمدافع تصم الآذان وتدك البنيان ، والقذائف تشعل الجو ناراً ودخاناً . وانقلبت « بورجيا » قرية فرنسا الجميلة إلى حطام يلتهب وأنقاضاً تنفر منها الشياطين ، وزخرت الطرق والمزارع بالنازحين منها والدبابات فى أثرهم ترسل عليهم الموت ولا عاصم لهم منها إلا العراء

وانتهت « جيوكندا » إلى ظل من ظلال الغابة ، فجلست مكروبة محزونة تنظر من خلال الدمع إلى القرية وقد أضحت يبابا

لقد ماتت أمها كمداً لمصرع وحيدها فى الميدان ، وكان أبوها مسجوناً على فراش المرض فبات تحت الأنقاض

ووقفت تنتفض ذعراً وهى ترى جموعاً مائجة ولججاً هائجة من دبابات الألمان تطوى الأرض وترسل ضوضاء وصفيراً يحطم العصب ويوهن القلب ، ومع ذلك فقد كانت مدافع الفرنسيين ترسل عليهم لظى من نار ، فلا يقفون ولا يهزمون كأنما قد بسط لهم أديم الأرض

ودنت منها الدبابات متراصة تنفث لهباً وموتاً ، وتترك ما وراءها صعيداً جرزاً ، فجرت هالعة إلى غير هدف ، ولبثت فى عدوها تنظر بين الحين والحين إلى الوراء فترى الدبابات تقترب منها فتواصل العدو ، وأضناها السير فسقطت لاهثة وانية ثم غابت عن رشدها

* * *

— أأنت قائد فرقة باسقات اللهب الخامسة والستين ؟

— نعم

فحول الجنرال نظره وعبث بشاربه الأشهب وتمتم بصوت خافت :

— ولكنك صغير السن . . .

فأردف القائد الشاب :

— كبير القلب مخلص لألمانيا والزعيم

— حسن . . . ألم يسبق لك الاشتراك فى معارك ؟

— كان لى شرف الاشتراك فى حصار « ليبج »

— تقضى أوامر الفوهرر بألا تقف دباباتك ولا تتراجع وسيكون هجومك على جبهة تمتد تسعين ميلاً من « بورجيا » وسترتها لك الطائرات وستسوق أمامك ألوف النازحين ليكونوا لك درعاً وليوقعوا الارتباك فى صفوف الحلفاء

والآن ما اسمك أيها القائد ؟

— جون فريتش

— إلى العمل يا جون فريتش ...

* * *

لما اقتربت الدبابات من « جيوكندا » كانت نفس القائد جون فريتش تنازعه إلى إبعادها من طريق الدبابات

... ولما حملها بين يديه أفاقت وابتسمت له ابتسامة لو مات على أثرها لما أسف على نعمة تركته فى الحياة

... ولما سألها عن وجهتها لم تدر بم تجيب

... ولما جلست إلى جانبه بالدبابة ألفاها كثرة ما بها من عدد وآلات

قالت بعد ما أدركت أنها بين ألمان :

— أتسوقون المدنيين هكذا كالنعاج ؟

— إنها أوامر الفوهرر ... والحرب لا ترحم

— وتقولون إنكم تنتشلون العالم من ربقة الديمقراطية وتريدون به السلام ؟

— لا شك فى ذلك

— فماذا أفاد حكمكم فيما اكتسحتموه من بلاد ؟

— قضاء على الرأسمالية وأصحاب الثروات

— وتقولون إنكم تناهضون الشيوعية ؟

— ليس فى القضاء على بطالة العمال بلشفة لهم ... فأى عدل ترين يا فتاتى فى رجل يملك الملايين وينام عمال مصانعه على الطوى؟

— ذا نصيبهم فى الدنيا (وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات)

— درجات ... وليس ملايين الدرجات فلا يكون البون بين صاحب المصنع وعامله شاسعاً . والعامل الذى أنتج الربح له

قسم فيه وللدولة مثله لتثقف به أولاد ذلك العامل، فليست المبقرية وقفاً على أولاد الأغنياء

— تالله[1] أنتم أعداء لكل ما يحرص عليه المتمدينون من تقدم اجتماعي وحرية بشرية ، ومامن أمة تبيت اليوم فى أمان من ظل الصليب المعقوف . وقهقه القائد حتى بدت نواجذه وقال :

— يا صغيرتي العزيزة . ها أنت ذي ترين جنود الحلفاء يفرون من وجه آلاتنا التي أنتجتها عقولنا ، فهل بين علمائكم من يستطيع أن يصنع شيئاً يقفنا ولو لبضع ساعات ... والعقل الذي يذلل العلم لرغباته والأمة التي تخفف الفوارق المادية بين طبقات الشعب فلا يكون فيها فاحش الثراء ولا من يسمو بالفقراء ، هي أرفع مدنية من أمة تتخم خزائن أفراد قلائل منها بالذهب ولا يجد العامل الذي أنتجه ما يقتات به كفرنسا أو مصر التي يسخر شعبها بأزهد الأجور لخدمة القلة من الأغنياء والتي دل الإحصاء على أن اثني عشر ألفاً منها يملكون نصف الثروة العقارية للبلاد مما لا أعرف له مثيلاً فى بلاد أخرى

وعملت هذه الكلمات فى نفس الفتاة عملها ، وذكرت أولئك الغارقين فى لذائذ الدنيا من أثرياء قومها ، وما لقيته من شظف العيش فى قريتها فأطرقت وأغرقت فى صمت طويل ، حتى إذا ما شارف سيل الدبابات على « باريس » كانت قد طوت نفسها على أمر .

* * *

(يبدى الفوهرر خالص ثنائه على المعاونة القيمة التي قدمتها الجاسوسة س ١٠٧ فى الميدان الفرنسي)

وافتر ثغر س ١٠٧ وهي تقرأ الرسالة الشفوية وملكها الزهو فأعادت قراءتها ثم سلطت عليها زفيراً من فمها تلاشت على أثره السطور وألقتها مزقاً فى الطريق

وأخذت سمتها شطر محطة « بوردو » ، تلك المدينة التي كانت مسرحاً لعملها الشاق ، وذكرت ذلك الحان الذي قضت فيه الوقت كله بين جواسيس الحلفاء تبيع لهم الخور وتستدر الأسرار من الصدور ، وسمعت صوت أقدام تتبعها فالتفتت فى ذعر فلمحت شبحاً يقترب منها ويهمس فى أذنها :

— أأنت س ١٠٧

فلما سمعت صوته هتفت :

— ميجر براون ... لم جئت ؟

— برسالة يا جيوكندا ... وناولها إياها

فهتفت نفسها :

— ترى أتكون من جون ؟

... « تقوم فجر اليوم ص ١٠٧ إلى مدينة إيفيل وترحل مع المهاجرات إلى دوفر لتتلقى الأوامر من ل ١٤ الذي سيستقبلها بربطة عنق زرقاء »

وألقت على الورقة زفيرها فابيضت ورمت بها إلى الطريق

* * *

قال « ل ١٤ » :

— شاء الفوهرر أن يترك قليلاً من قوات الحلفاء التي رحلت عن « دنكرك » لتصف الأهوال التي أذاقها لهم الألمان ، فيكونوا لألمانيا خير دعاة ، فعليك تصويرهم فى أسمالهم لدى نزولهم من البواخر لتزين بها المنشورات الألمانية التي تلقيها الطائرات على انجلترا ... والساحل الإنجليزي يا ...

فأشارت إليه بالسكوت فهمس :

أقول إن الساحل الإنجليزي حاجز من الجحيم ضد القوات التي تحاول اختراقه فعليك مراعاة الدقة فى تنفيذ هذه التعليمات ومد لها يده بورقة

وأبدت « جيوكندا » من الحذق والمهارة فى الحصول على صور الحصون وأوكار المدافع وحركات الجنود والقوافل البحرية ما أهج ألسن الجستابو بالثناء

وجد قلم المخابرات البريطاني فى تعقب الجاسوسة س ١٠٧ وضاق بحيلها ذرعاً ، فهي آنا مهاجرة حليفة ، وآنا ممرضة تندس بين الجنود ، أومتطوعة توزع الحلوى فى المسكرات والمستشفيات ومالأها الحظ فكان يكلل مجهودها بالنجاح

وطلعت عليها الصحف بنبأ الهدنة ، وأخذ المارشال بيتان بنظم ألمانيا الاشتراكية ، فخمدت فيها جذوة النشاط

لقد أدركت غايتها وأصيب الهدف الذي كانت تسعى إليه

ولكنها تعلم أن الجاسوس لا يمكنه التخلي عن عمله لأي حال كان ...

وفرت جيوكندا على باخرة تميد اللاجئين إلى فرنسا

واستقبلها الجستابو على رصيف ميناء « كاليه » ، وأبلغها الأسف الشديد لصدور الحكم بإعدامها

(١) نصرة الدعاية البريطانية

وشدهت جيوكندا وفرقت وهتفت بصوت خائر :

— ألا يشفع لى ما قدمت يداى لألمانيا من خدمات ؟

* * *

سقطت « باريس » تحت أقدام الألمان فخيم على مدينة النور الظلام ...

وأخذ حذاء القائد « فريتش » يدب فى رفق على إفريز « السين » ولم تزل صورة « جيوكندا » تعبر فى فكره وتتسلل إلى قلبه فتثير فيه الألم والشجون ، ومرت بخاطره خيبته فى إقناعها بالعدول عن الالتحاق بالطابور الخامس وإصرارها فى عناد وقولها له فى حزم :

— فلن أهدأ حتى تتحطم الرأسمالية فى فرنسا وأرى بعينى فيها نظم الرعع

وتصور أنها الآن تضرب فى أرض الدنيا لا تكاد تستقر فى بلد حتى يأمرها الجستابو بالانتقال إلى آخر

وملكته رغبة ملحة فى رؤيتها والوقوف على حالها

ربما اعتقلت ... ومن يدرى لعلها أعدمت بالرصاص ، وأفزعه هذا الخاطر فخفق قلبه الملتاع وتهالك على مقعد قريب وقد تولاه طائف من الوجد والذهول ...

ووثبت صورة جيوكندا أمام ناظره تتهادى على صفحة السين الساكن ترنو إليه بعينين تحكى خضرة البحر ، وشعرها الذهبى الهفهاف يداعبه النسيم

وبدا له أن الجاسوسية أنهكتها ، وأن شبح الإعدام أرهف أعصابها ، ورآها بعين الخيال تهرع إليه وتسرد عليه ما خاضته من أهوال ، وهو مع ذلك لاه عن حديثها بضمها وشمها ولثم ثغرها المعطر كأنفاس الياسمين

ودبت خيوط الفجر فى فحمة الليل فهب القائد من حلمه الجميل يمشى خفق الفؤاد مبلبل الفكر ، وحينما مر بجريدة « بارى سوار » التى اتخذت مركزاً للجستابو ، طرأ عليه أن يسأل عنها صديقه الميجر « براون » ، فعلم أنه أوصل لها رسالة سرية فى بوردو وأنه رآها تركب عربة . ثم أردف : وأحسب أننى سمعتها تقول للسائق إلى « إيفيل »

وبذل الميجر لصديقه معاونة صادقة حتى علم أنها فى دوفر

ولكن دوفر واسعة ، ووصول الألمانى إليها مستحيل

... وأخذ القائد يفكر ويفكر ...

وانتشله من أفكاره صوت طرق الباب ودخل ضابطه المساعد وبيده التبت اليومى لمن طلبت القيادة والجستابو إعدامهم بالرصاص ، فألقى عليه نظرة عجلى ، ولما أراد التوقيع عليه علق نظره باسم جيوكندا ، فازدلفت تحت ناظره الأرض وانقبض قلبه فى صدره كطائر مذبوح

وكذب عينيه وقام ينهب الأرض إلى ميدان الإعدام

وألفى فاتنته الموموقة معصوبة العين بين طابور المحكوم عليهم تقف مهيضة النفس كاسفة البال

يا لها من لحظة هائلة ... لقد آن موعد إعدامها ... وأى محاولة لإنقاذها تفقده شرفه وحياته ... فكيف السبيل ؟

وشحب لونه شحوباً هائلاً وغلى رأسه كالمرجل واصطرعت فيه أفكار سود

اقترب القائد من جيوكندا وهمس فى أذنها كلمات

وأمر الضابط أن يقف الإعدام لحظة ينهى فيها أمراً عاجلاً ويعود . وعاد بعد دقائق

قال القائد فريتش لضابط الإعدام :

— أمتأكد أنت من حشو بنادق الجنود ؟

— كل التأكد يا سيدى ... وتفضل بالتفتيش

ومر القائد على الجنود . وفتش بنادقهم واحداً واحداً ليتأكد من حشو جميع البنادق . وسقطت من يد القائد رصاصة أحد الجنود فانحنى الجندى لأخذها ، ولكن القائد كان أسرع منه فى التقاطها ووضعها بيده فى بندقية الجندى ...

وأشار القائد ... فدوى الرصاص

* * *

— ولكن المعجزة يا جون ... كيف تمت

— كان جنوناً أن أراك تندمين يا جيوكندا ولا أفعل شيئاً فهمست لك أن تتماوتى لدى إطلاق الرصاص وأتيت بطلقة فشنك[1] وحشوت بها بندقية الجندى المكلف بإعدامك بدل التى تعمدت إسقاطها عند التفتيش على بنادق الجنود

قطبعت جيوكندا قبلة طويلة على ثغر جون فريتش .

محمد محمد مصطفى

بإدارة مدرسة البوليس

(١) نوع من الرصاص ينفجر ولا يحدث ضرراً .

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع البيروني — عابدين ﴾